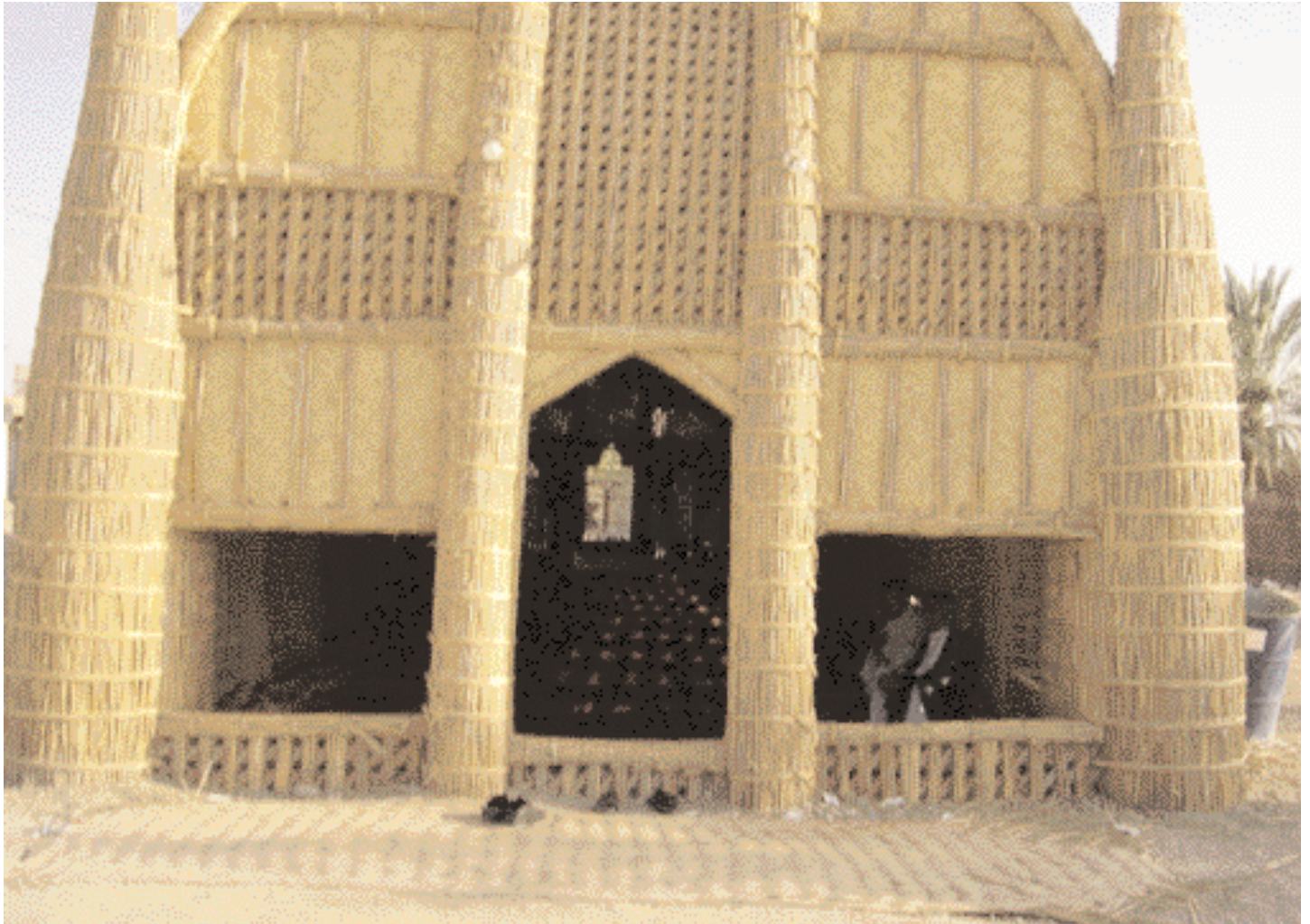


الأهوار

جنةٌ عدنٍ المفقودة

تحقيق: وليد عبد الأمير علوان
تصوير: مهند الأسدي

عالم جميل وساحر، انفرد به العراق دون سواه من أرض العمورة، حتى قيل عن المنطقة أنها فينيسيا العراق. لما ختويه من جمال الطبيعة والمناظر الخلابة. واحدة من أكبر الأنظمة البيئية في العالم، وأغرب بيئة مائية فيه، حيث يعيش الإنسان، والحيوان، والطيور، والسمك، سوية وسط الماء، في جو ساحر مستقل، منعزل عن العالم، يبهر كل من يصل إليه، وقد وصل الخال بأحد زوارها، وهو الطبيب البريطاني "جورج رو"، أن ترك مهنة الطب وتحول إلى أناري عندما رآها لأول مرة. تعتبر الأهوار أكبر محطة استراحة للطيور المهاجرة من سيبيريا إلى إفريقيا، وتزود العراق بأكثر من نصف احتياجاته من الأسماك، ومنتجات الألبان. وصفها الباحثون والمستكشفون الأجانب بأنها جنة عدن. إنها الأهوار أو الفردوس المفقود في جنوب العراق.



The guest house of Al-Khayon family.

مضيف آل خيون في الجبايش.



View of the marshes.

جانب من هور الجبايش.

ما هي الأهوار؟

الأهوار عبارة عن مجموعة من المستنقعات والبحيرات. تغطي مساحة شاسعة من الأراضي. ومساحتها في العراق تمتد ما بين 15-20 ألف كم مربع. معظمها بين نهري دجلة والفرات. ضمن مدن العمارة والبصرة والناصرية. في الجنوب. والجزء الآخر. يمتد على الجانب الأيسر من نهر دجلة. ونظراً لأن بعض مصادر تغذيتها تعتمد على كميات الأمطار. والثلوج الساقطة في منابها الرئيسية. فإن تحديد مساحتها. يتباين من سنة لأخرى. ومن فصل لآخر. وفق مستويات مياه نهري دجلة والفرات. أما أكبر الأهوار. فهو هور الحوزة. وتبلغ مساحته 2863 كم مربع ويليه هور الحمّار. والذي تبلغ مساحته 2441 كم مربع. وعدد سكانها يتراوح بين 600-750 ألف نسمة. تتميز هذه المنطقة بأنها في تغير مستمر. ففي السنوات التي حدث فيها فيضانات عالية وطويلة الأمد. تتسع حدود الأهوار فتغمر مساحات شاسعة. في حين أن هذه الحدود تنقلص في سني الجفاف.

تاريخ المنطقة

يرجع نشوء الأهوار إلى عهد السومريين الذين بنو حضارة أور على مقربة من الناصرية. قبل حوالي خمسة آلاف سنة. حيث أقام العراقيون الأوائل صرحهم الحضاري على ضفاف الأنهر. وفي وسط المسطحات المائية. وكما اكتشف السومريون بناء الحضارة الأولى. أسرار الماء وخبايا الأهوار. وأبدعوا في تسخير معطيات بيئتهم وشيدوا مراكزهم ومعابدهم وديارهم واخترعوا هندسة القوارب وفيزياء الحركة والماء. فإنهم قد سخروها جميعاً خدمتهم في هذه المنطقة. لعل هذه الأهوار قد تكونت منذ الأزل. من خلال فيضان نهري دجلة والفرات. عن ضفافهما إلى المساحات المجاورة لهما. وهو فيضان الخير والبركة. الذي يجدد خصوبة الأرض. ويغذي الأهوار. بما تحتاجه سنويا من المياه لتنعش بها دورة الحياة. ولأنها تمتاز بانسياسط أراضيها. لقلّة درجة انحدارها. فان مياه الأنهر. والأودية. والقنوات. والبيزول. تنساب إليها من كل صوب. ولا يتعدى عمق مياه هذه الأهوار. أكثر من عشرة أقدام.

تمتاز هذه المنطقة عن جميع مناطق العالم بوجود عدة جزر فوق مستوى المياه. تقع عليها القرى التي يسكنها زارعو التّلب (الرز). ومربو الجاموس. وفي سواحل الأهوار



Mats.

حصران على قارعة الطريق.

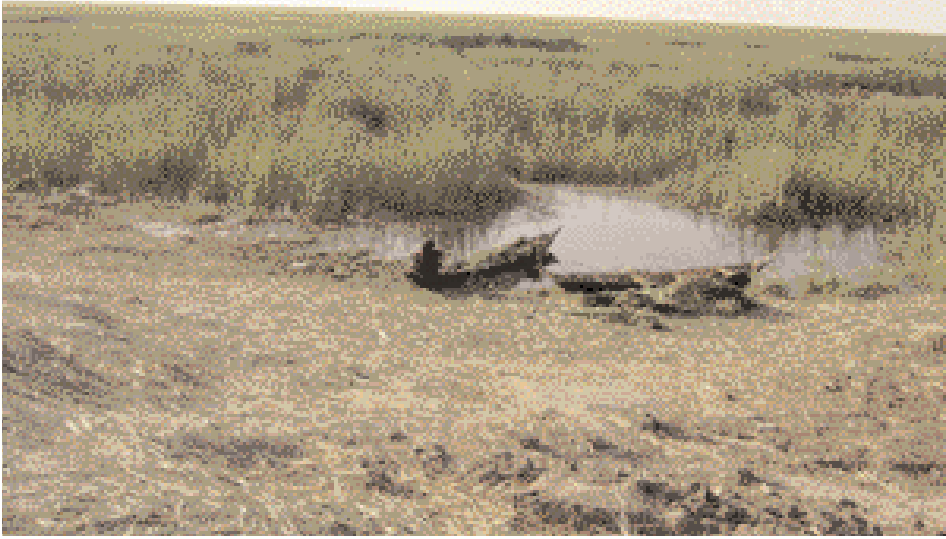
يمتاز هذا القصب بأنه على عدة أنواع. منها نوع غريب يسمى بـ"النارسي". وهو صلب جداً. لذلك يستخدم ذراعاً لآلة صيد الأسماك (الفالّة). أو لتجديف الزوارق (المردي). أما الأنواع الأخرى فتستخدم في بناء الأكواخ. وعمل الحصران. ويمتاز القصب بأن له ميزة فريدة. وهي أن جذوره تسري فيها الحياة لمدة 300 عام. حتى لو انقطعت عنها المياه. وهذه ميزة نادرة. فلما تجد لها مثيلاً في النباتات الأخرى.

مشطي عالي للطيور

ينحصر في منطقة الأهوار. وجود نوعين من الطيور. لاوجود لهما في أي مكان من العالم. وهما غريد القصب البصراوي. والغرثار العراقي. كما أن هور الحوزة وهور الحمّار يوفران المأوى لثلثي الطيور المهاجرة. القادمة من غرب سيبيريا. ووسط آسيا. والتي تهاجر شتاءً إلى إفريقيا. ولهذه الطيور أسماء محلية عند

الخارجية. بكثرت النخيل. ويمتد إلى مسافات بعيدة على ضفاف الأنهر والجداول. كذلك فإن هذه المنطقة تتميز بوجود أكبر غابات قصب في العراق.

يمثل القصب - والذي ورد ذكره في ملحمة جلجامش - قلب منطقة الأهوار. ويلعب دوراً مهماً في دعم اقتصادياتها. إذ يعتبر من أهم موارد الثروة الصناعية لمنطقة الأهوار. فهو المادة الخام الضرورية لصناعة الورق الذي تقوم الدولة بشرائه من أهلها. ويستخدمه أهالي المنطقة في صنع الحصران التي يستخدمونها في بناء بيوتهم. والفائض منه يصدر إلى المحافظات المجاورة. سوية مع القصب الخام. على شكل حزم كبيرة تربط ببعضها وتطلق في الماء في عملية فريدة من نوعها. ومنه تسير منحدرتة مع تيار الماء إلى مدينة البصرة. ويذكر أن هذه الحصران كانت معروفة منذ أقدم الأزمنة التاريخية. وقد وجدت آثارها في كل من أور وأوروك. وهي تشير إلى صلتها بالأهوار منذ آلاف السنين.



View of the marshes.

جانب من هور الجبايش.



The return of the buffaloes .

الجاموس العائد بعد رحلته اليومية.



The marshes' canoes.

مشحوف داخل الهور.

سكان الأهوار. حيث يقسمونها إلى عدة أقسام، أولها "الطيور الحرة"، وهي طيور زاهية وجميلة المنظر، وذات لحم طيب، وتأتي من حوض البحر الأسود خصيصاً إلى مزارع الشلب (الرز)، حيث تتوفر الجيوب المتبقية على الأرض، بعد انتهاء موسم الحصاد، وختمي بين غابات القصب والبردي في الأهوار البعيدة جداً. وأشهر هذه الطيور: الخَضِيرِي، الحَذَّاق، البُرَيْش وأبو رَلَّة، إلا أن أفضلها في الأكل والریش، هو الخَضِيرِي، ويعتبر الشريان الاقتصادي لهذه المنطقة، وأكثرها عرضة للصيد، حيث يصيدونه ليلاً، عن طريق نصب الشباك، وبطريقة فنية.

أما النوع الآخر فهو "الطيور السمكية"، وتسمى بذلك لأنها تتغذى على الأسماك الكبيرة والصغيرة، وتأتي من السواحل الأفريقية، وسواحل جنوب شرق آسيا، وأشهرها البجع، الورد، الحمرا، الزركي، اللقلق، وتمتاز بأن لكل منها منقارا حادا، وصيد هذه الطيور نادر، لأن لحمها غير لذيذ، وبعضها قد حُرِّم أكله في الشريعة الإسلامية، كالبجع واللقلق، وهي تعود إلى بلدانها بسلام.

أما النوع الأخير من هذه الطيور فهو "الطيور الجارحة"، والتي أشهرها: الصقر، الشاهين، والجوم، حيث تتغذى على اللحوم، وهي جيد الغوص في أعماق المياه لتصيد الأسماك، وهذه عادة يتم صيدها، خصوصا الصقر، عن طريق نصب كمائن يومية، وقد تستغرق هذه العملية أشهرا، لكي يُحظى بصيد واحد، حيث يتم بيعه بمبلغ عال جداً إلى هواة الصيد من الخليجيين، وهناك طير جارح كئيب الریش وقوي الأجنحة والجسم يطلق عليه المَعْدَان اسم "أخت مسعود"، بالإضافة إلى هذه الطيور، هناك مئات من أنواع أخرى، فمنها دائمة وتضع بيضها بين غابات القصب والبردي، أو طيور تأتي في مواسم أخرى مثل طير فرقر (البرهان)، وهناك الغراب الأبقع والأسود وأنواع العصافير والبلابل، وهذه البلابل يطلق عليها "طيور بنت الشيخ".

أكبر الأحواض لتجمع الأسماك

تعدُّ الأهوار من أكبر الأحواض لتجمع الأسماك، وعلى امتداد أكثر من 120 ميلا شرق وغرب دجلة، حتى هور الحمّار، والذي ينتج وحده أكثر من 2000 طن سنويا، حيث تجهز الأهوار 60 من حاجة العراق من الأسماك، وأشهر تلك الموجودة فيها: الكطان، الحمري، البني والشبوط، ويتبع الصيادون طرقا مختلفة في صيدها، فهم يعرفون كل حجر يختبئ فيه السمك، ونوع أسماكه، ودائما يفضلون الكطان والبني، لأنها غالية الثمن، وخير ما يقدم للضيوف، وتخرج هذه الأسماك ليلاً إلى البرك الكبيرة، لتقتات على جذور النباتات المائية الطرية، وتعود نهائياً خوفاً من الصيادين، ولكنهم يتابعونها ليلاً بإشعال الأضوية وصيدها بشباكهم، وتسمى هذه الطريقة بـ"السراج والفالة"، أما في النهار، فيجتمع الصيادون بأعداد كبيرة، وينشرون شباكهم في مداخل المحور (التهول)، وينزل الصيادون بفالاتهم فيها، بعد ثقب السطح، ويقومون بصيد الأسماك، ومن تهرب من الأسماك تكون الشباك ←



A marsh woman collects the reeds.

امرأة من الأهوار تجمع القصب.



Houses in the marshes.

بيوت داخل الهور.



Houses in the marshes.

بيت داخل الهور.

قد قطعت الطريق عليها. وآلة الصيد الأكثر استخداماً وشيوعاً هي "القالبة". وهي عبارة عن عصا من خشب الخيزران يبلغ طولها 3-4 أمتار، تتركب في رأسها قطعة حديدية، لها رؤوس مدببة، تشبه أصابع اليد. ويستغل الصيادون حلقة الظلام، ليستقلوا ظهور الزوارق المحلية، ويتم الاهتداء إلى الأسماك الساكنة الغافية في مياه الهور الشفافة عن طريق استخدام الفوانيس. أما أفضل طرق طهيها لديهم، فهي طريقة الشواء، حيث يقومون بعد تنظيف بطن السمكة من محتوياتها، بوضع مادة الطين عليها، ثم يضعونها في النار، التي تعد من القصب اليابس، وبعد ذلك ترفع طبقة الطين عنها، والذي يكون قد جفَّ بسبب النار، ويتناولونها مع الخبز الحار الذي يكون قد أُعدَّ بواسطة التنور المصنوع من الطين، وتكون ذات طعم شهوي قلما يجد له نظيراً في أرقى مطاعم العالم.

بيئة متكاملة للأحياء الحيوانية والنباتية

بالإضافة إلى الجاموس والأسماك والطيور، فإن الأهوار تكاد تكون بيئة متكاملة للأحياء الحيوانية والنباتية، وغيرها من الأحياء المجهرية، حتى الفقريات، حيث توجد فيها: الأبقار، والخنازير، وكلاب الماء، والقمندس، والقوارض، ومن الزواحف: السلاحف، والثعابين، والعضايا، وجميع الهائمات الحيوانية، كالدرعيات واليرقات، والنباتية كالطحالب بأنواعها، ومن البرمائيات، خمسة أنواع من الضفادع، ومن النباتات، عدا القصب والبردي، أنواع الزنباق والمران، والحشائش الساحلية، وهذه النباتات بعضها طافية والأخرى غاطسة.

أهل الأهوار وطريقة معيشتهم

يتميز سكان الأهوار بنمط خاص من المعيشة، وتبعاً للظروف الاقتصادية، والاجتماعية، والجغرافية، المحيطة بهم، وعلى الرغم من استقرار سكان هذه المنطقة، إلا أن قسماً منهم لا يستقرون استقراراً دائماً في مكان واحد، ومنهم جماعة يطلقون عليهم اسم "المعدان"، حيث يعيشون على جزر متناثرة، ويعبدون عن مؤثرات العالم الخارجي، حتى إنهم لم يشاهدوا السيارة إلا في ستينيات القرن الماضي، وتعد تربية الجاموس الحرفة الرئيسية لهم، ينتقلون بها من مكان لآخر ضمن محيط قبيلتهم، والغريب أن منهم من يترك الجاموس لساعات طويلة في الماء، وعند المساء يعرف هذا الجاموس طريقه إلى أصحابه دون الحاجة إلى دليل.

ونتيجة لوجود الطبيعة المائية، التي تغلب على مناطق الأهوار، كالمسطحات المائية والأنهار والقنوات، فقد اتخذ أهل الأهوار، مساكنهم وسط هذه المياه، على جزر من القصب، حتى تبدو من بعيد كأنها مقامة على المياه، ولكل منزل من منازلهم مساحة صغيرة أمامه، وهذه تكون عادة مصنوعة من القصب والحصائر، ومغلقة هياكلها بالقصب أيضاً، وبالنظر لتوفر المواد البنائية المحلية، لإنشاء المساكن، وبكميات كبيرة ورخيصة، وفي متناول الجميع، ولاستمرار توارث التقنيات التقليدية، ووجود روح التعاون والمشاركة ←



Al-Hammar.

هور الحمار.

الجماعية في البناء، فقد أصبح لكل عائلة مسكن. إن هذه المساكن تتنوع تبعاً لنوع الوظيفة التي يؤديها، وأولها "السلف" وهي بيوت مكونة من الصرائف، والتي يتراوح عددها بين 300-400 بيت، وتستخدم في المناطق المزدحمة. أما "الصريفية" فتستخدم في أغلب الأحيان كمخزن أو كمسكن لتوسطي الحال. لأن مستوى البناء ونوعيته واطنة.

أما "المضيف" فهو الجزء الحيوي من القرية، ويمثل بيت الضيافة أو الاجتماعات، ويهتم عادةً ببنائه وإدامته، لأنه بمثابة برلمان المنطقة، حيث تعقد فيه اجتماعاتهم الاعتيادية وكذلك لفض المنازعات التي تحصل سواء بين أبناء هذه المنطقة أو تلك التي مع أبناء المناطق الأخرى. ويكون شيخ القبيلة أو زعيم المنطقة هو صاحب القرار النهائي. وكذلك يحظى رجال الدين، الذين يقدون من المناطق المقدسة في العراق، وخصوصاً طبقة السادة، وهم من ذرية الرسول الأكرم (ص) باحترام كبير، حيث يقومون بإحياء مجالس العزاء، التي تقام بمناسبة استشهاد الإمام الحسين (ع). كما أنه المكان الذي يلجأ إليه الضيوف والزوار الذين يقدون إلى هذه المنطقة، حيث يقدم لهم الشرباب والطعام، وكذلك المبيت، وحسب العادات العربية الأصيلة.

تمثل "الربيعة" السكن الخاص بالعائلة، ودار الضيوف، وتستخدم من قبل سكان الأهوار الدائمين. أما المعدان فيسكنون عادة في "الإيشان"، وهي عبارة عن جزر صغيرة تتمركز في الأهوار العميقة والدائمة، ويلجأ رعاة الجاموس إلى "الإيوان" كمصاطب، متحركة خاصة أوقات الفيضان، وتصنع من القصب ←



Al-Chabaich.

سوق الجبايش.

الدهن، وهن يشاركن في الزراعة، والصيد، وتربية الجاموس والأغنام ورعايتها، وعمل مشتقات الألبان، وأولها "الفيمر" والذي تتميز به هذه المنطقة عن غيرها من المناطق، حيث يصنع من حليب الجاموس الخالص، والذي يمتاز بأنه ذو دسومة عالية، إضافة إلى قيامها بأعمال البيت الأخرى وأهمها عمل الخبز، وإن جميع هذه العمليات لا زالت تجري في هذه المنطقة، على نفس ما كانت تجري عليه قبل خمسة آلاف سنة.

أشهر زوار المنطقة

لقد استهوى عالم الأهوار الساحر، الكثير من الباحثين والآثارين، وطلاب المتعة، حيث قصدوها وأمضوا أوقاناً طويلة فيها، ولعل أولهم الباحثان "بكستون" و"داوسن"، وقد كتب داوسن تقريراً عن حالة العراق الاقتصادية، كذلك زارها الرحالة "ويلفرد نيسغر"، وهو عسكري بريطاني الجنسية، تقاعد من الجيش وانصرف إلى الرحلات وأصله من أيرلندا، حيث أمضى الفترة من عام 1951-1957 فيها ساكناً مع شيوخ عشيرة "البو محمد"، وكان يقضي أشهراً من السنة فيها ولم يعيش بصورة مستمرة فيها، وقد لفت نظر العالم بكتابه "عرب الأهوار" الذي نشر في عام 1964، أما القاص "كافن ماكسويل"، فقد جاء في ضيافة نيسغر وأمضى عدة أسابيع في الأهوار عام 1956 وكتب كتاباً أيضاً عن رحلته هذه، وأرسل العالم الانثروبولوجي الأمريكي "هنري فيلد" وفداً علمياً لدراسة أهل الأهوار في الثلاثينيات.

الذين يتوزعون في هذه المناطق، هم أفضل من يقوم بصناعة الزوارق وإدامتها.

ثقافة وأدب عرب الأهوار

نظراً لطبيعة الأهوار الساحرة، حيث السماء الزرقاء، وخضرة النباتات، وزرقاء المياه، وزرققة العصافير، هذه المشاهد الرائعة، جعلت الإنسان في الأهوار، إما شاعراً، أو أديباً قاصاً أو روائياً أو محباً للأدب بشكل عام، وعندما يولد الإنسان هناك بين أعواد القصب، فإنه يربى على سماع الشعر بأنواعه، الفصيح والشعبي، والطبيعة الجميلة في الأهوار، هي التي ساهمت في ولادة قوافل الأدباء والشعراء والفنانين، فوق تلك الجزر الطافحة، حيث تعقد جلسات الشعر في المضاف حتى آخر الليل، ولعل ما يذكره الناس هنا، إنه في إحدى مواسم الفيضان، الذي اجتاحت منطقة الجبايش، كانت تمكث إحدى عوائل المنطقة في سفينة هي وأثاثها، وفي سفينة ثانية، كانت مكتبة هذه العائلة، وهذا يدل على عشق سكان هذه المنطقة للكتاب.

نساء الأهوار

أما النساء في الأهوار فهن ذوات نفوس طيبة، وابتسامات بريئة، وهن ودودات إلى أبعد الحدود، ذوات وجوه جميلة، وعيون كحيلة، حيث إن الطبيعة قد أعطت المرأة هنا أكثر مما قد تعطيه المساحيق، تمتاز المرأة في الأهوار، وخصوصاً المعدان، بقوتهن الجسدية العالية، وذلك لاعتماد غذائهن على حليب الجاموس

والبردي وبعض التراب، ويتم دفعها أو سحبها من مكان لآخر وقت ما يتطلبه الموقف، وهي تتسع لكوخ واحد، وكثيراً ما تتجمع هذه المصاطب لتكون جزيرة عائمة وسط المياه.

أما "الجبايش" فهي جزر اصطناعية، تبنى من التراب والقصب والبردي، ويضاف إليها الماء، حيث تصبح على شكل ارتفاعات صناعية، فوق جزر طبيعية موجودة، أو جزر صناعية بكاملها، بحيث يكون أعلى مستوى لها فوق الماء، ويشتهر هذا النوع من السكن في قضاء الجبايش الذي يضم لوحده 1600 جزيرة موزعة على 31 قرية.

بالرغم من الظروف الطبيعية الصعبة التي تحيط بعرب الأهوار، فإنهم قد استطاعوا التكيف مع المحيط المائي، ولم يشكل ذلك لهم أي عائق في مجال التنقل، وحتى الاتصال مع المدن الواقعة على حافات الأهوار، وإن استخدام القوارب، يختلف أنواعها، هو أمر مألوف لدى السكان، حيث إنه يمكن أن يقوم حتى الأطفال بقيادة القوارب الصغيرة، في أعمار مبكرة، حيث ينتقل عرب الأهوار ما بواسطة "الطرادة" وهي الزوارق الكبيرة الحجم، التي كانوا يستخدمونها سابقاً في القتال أو المعارك، أما اليوم، فإنها تستخدم من قبل شيوخ المنطقة ووجهائها، في الصيد أو استقبال الضيوف، أو بواسطة "المتخوف"، وهو أكثر الأنواع استخداماً في الأهوار، نظراً لخصته وإمكانيته العالية في المناورة داخل الممرات المائية، وهو أصغر حجماً من الطراد، حيث يصل طول بعضها إلى مترين، كما تستخدم "الجلابية" وهو قارب عجيب في التنقل مصنوع من روث الحيوانات، أما الحيوانات فيتم نقلها بواسطة "البلم"، وهو عادة ما يكون بحجم كبير، وقد دخل أخيراً "المأطور"، و"الشخورة"، حيث يعتمد الأول في تشغيله على محرك صغير ويستخدم عادة في النقل الجماعي، إن هذه الزوارق تخم صناعتها من قبل أهل المنطقة بأيديهم وذلك باستخدام خشب الصاج أو الجاوي المطلي بالقار، ويكاد يكون الصائبة المنذائون.

صيادو السمك في هور الحمارة.
The fishermen in Al-Hammar.



سمك تم اصطياده من هور الحمار.

Fish collected from the marshes.



البقر يعيش سوية مع البشر داخل الأهوار.

The cattle live with their owners.

ونشرت بحوثه في كتاب عن أنثروبولوجيا العراق. وكانت الدراسة بالخصوص عن قبيلة البو محمد. والتي تفضل تلك المنطقة من جهة العمارة. كما زارها الرحالة "كافن يونغ" ووضع كتابا عنها. تمت ترجمته إلى العربية بعنوان "العودة إلى الأهوار". وكان قد تعرف على نيسبغر وشاركه في تصوير المنطقة في الخمسينات. كما نال البعض الشهادات العلمية عن هذه المنطقة. أشهرهم الدكتور شاكر مصطفى سليم. والذي نال شهادة الدكتوراه من جامعة لندن بأطروحته "الجبايش".

عملية تجفيف الأهوار وإعادة إحيائها

لقد وصف خبراء البيئة. بأن تجفيف الأهوار لم يحدث كارثة بيئية فقط. بل إن المشهد الثقافي هو الآخر قد تعرض للخسارة. إذ أدى هذا التجفيف إلى القضاء على حاضنة الحضارة السومرية. وإنهاء طريقة حياة امتدت نحو خمسة آلاف سنة. وهذه هي التراجيديا بحد ذاتها.

لعل تطافر جهود الهيئات الدولية والحكومات والمنظمات غير الحكومية. بتبني مشاريع لإعادة الحياة لهذه المنطقة. هو وحده الكفيل بإعادة هذه المنطقة إلى سابق عهدها. وبالفعل فقد نجحت هذه الجهود المكثفة من خلال الدعم المالي والعلمي. وبمساعدة الجهات المعنية العراقية وسكان المنطقة. في إعادة الحياة إلى حوالي 35 من مناطقها. حيث تم غمر مناطق الكرماشية وأم نخلة والعدّ والمسحّب والصلال في هور الحمّار والجبايش وأبو زرك وعوبينة في الأهوار الوسطى.

سالف عهدها خلال السنوات الخمس القادمة. وبذلك سوف تعود جنة عدن من جديد ويعود الإنسان وبقية أحيائها إلى العيش سوية في بيئة متوازنة. تضمن الحياة للجميع. ■

وكذلك هور الحويزة. عن طريق عمل فتحات من خلال أكتاف نهري دجلة والفرات. لتنساب منها المياه بغزارة إلى الأراضي المجاورة وتعانقها بعد فراق طويل. وسيتم قريبا فتح منحف للأهوار. ويتوقع أن تعود المياه إلى